

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٥١)

[الحج: 51]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ حَالَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ حَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعَمَلَ الطَّالِحِ، الَّذِينَ لَمْ يَسْتَمِعُوا لِهَذَا النَّذِيرِ الْمُبِينِ، وَلَمْ يَسْتَضِيئُوا بِالنُّورِ الَّذِي مَعَهُ؛ بَلْ تَصَدَّوْا لِهَذَا النُّورِ، وَأَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَبِمَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ أَكَاذِيبٍ وَأَضَالِيلٍ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ صَاحِبِ إِلَّا جَهَنَّمَ وَمَا تُمَدِّهِمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ^(١).

ذُكِرَ حَالُ أَهْلِ
الْكُفْرِ وَمَا لَهُمْ
بَعْدَ ذِكْرِ حَالِ
أَهْلِ الْإِيمَانِ
وَجَزَائِهِمْ

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿سَعَوْا﴾: السَّعَى أَصْلُهُ الْمَشْيُ السَّرِيعُ، وَهُوَ دَوْنُ الْعَدْوِ^(٢)، يُقَالُ: سَعَى؛ إِذَا مَشَى، وَسَعَى إِذَا عَدَا، وَسَعَى إِذَا عَمِلَ، وَسَعَى إِذَا قَصَدَ^(٣)، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَصْلُ السَّعَى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ التَّصَرُّفُ فِي كُلِّ عَمَلٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٤) [النجم: 39]؛ مَعْنَاهُ إِلَّا مَا عَمِلَ، وَكُلُّ عَمَلٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ سَعَى، وَالْفِعْلُ كَالْفِعْلِ^(٥)، فَالسَّعَى الْمَشْيُ الشَّدِيدُ، وَيُطْلَقُ عَلَى شِدَّةِ الْحَرَصِ فِي الْعَمَلِ تَشْبِيهًا لِلْعَامِلِ الْحَرِيسِ بِالْمَاشِي الشَّدِيدِ الْمَشْيِ فِي كَوْنِهِ يَكْدُ لِلْوُصُولِ إِلَى غَايَةٍ^(٥).

وَيُطْلَقُ السَّعَى عَلَى الْعَمَلِ فِي الْأَمْرِ لِإِفْسَادِهِ وَإِصْلَاحِهِ، وَمِنْ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1059/9، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 235/23.

(2) الزاغبي، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سعي).

(3) الأزهرّي، تهذيب اللغة: (سعي).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (سعي).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 295/17.

استعماله في الإفسادِ قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾، ومن إطلاق السَّعي في العملِ للإصلاحِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22]، ومن إطلاق السَّعي على الخيرِ والشرِّ معًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: 4]⁽¹⁾، والسَّعيُّ المراد هنا سعي المشركين واجتهادهم المجادلة والتعجيز في الآيات، وهو سعي للباطل والضلال⁽²⁾.

(2) ﴿مُعْجِزِينَ﴾: (عجز) أصلٌ يدلُّ على الضَّعف، يُقال: عَجَزَ عن الشيءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهو عاجِزٌ؛ أي: ضَعِيفٌ، ويُقال: أَعْجَزَنِي فُلَانٌ، إذا عَجَزْتَ عن طلبه وإدراكه⁽³⁾، والمعْجِز: الطريق؛ لأنه يُعْيِي صاحبه لطول السُّرى فيه⁽⁴⁾، والإعْجَاز: الفَوْتُ والسَّبْق، يُقال: أَعْجَزَنِي فُلَانٌ؛ أي: فَاتَنِي، وقيل: إذا عَجَزْتَ عن طلبه وإدراكه⁽⁵⁾، ويُقال: فُلَانٌ يُعَاجِزُ عن الحقِّ إلى الباطل؛ أي: يَلْجَأُ إِلَيْهِ⁽⁶⁾، والمقصود بالمُعَاجِزِ في الآية: المُسَابِقُ الطَّالِبُ عَجْزَ مُسَابِرِهِ عن الوُصولِ إلى غَايَتِهِ وعن اللحاقِ به⁽⁷⁾.

(3) ﴿الْجَحِيمِ﴾: (جحم) أصلٌ يدلُّ على الحَرَارَةِ وشِدَّتِهَا، فالجَاحِمُ هو المكانُ الشَّدِيدُ الحَرِّ⁽⁸⁾، والجَحِيمُ: اسمٌ من أسماء النَّارِ، وكلُّ نارٍ عَظِيمَةٍ في مَهْوَاةٍ فهي جَحِيمٌ⁽⁹⁾، والمراد بها في الآية: النَّارُ الْمُؤَجَّجَةُ، وتُطْلَقُ عَلَمًا على جَهَنَّمَ دارِ عَذَابِ الآخِرَةِ⁽¹⁰⁾.

❁ الْمَعْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

يُخْبِرُ الحقُّ تعالى عن سوء عاقبة المُصِرِّين على كفرهم فيقول: والَّذِينَ سَعَوْا بِكُلِّ مَا أوتُوا من قُوَّةٍ في إِبْطَالِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَرَدِّهَا مُعَانِدِينَ وَمُشَاقِّينَ لِلَّهِ وَظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَ اللَّهَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَغْلِبُونَ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا يَنْصُرُهُمْ؛ فهؤلاء هم أصحاب الجحيم

(1) السَّنَقِيطِيُّ، أضواء البيان: 283 / 5.

(2) أبو حنَّان، البحر المحيط: 524 / 7، والخطيب، التفسير القرآني: 1059 / 9.

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).

(4) الزَّيْدِيُّ، تاج العروس: (عجز).

(5) الأزهرِّي، تهذيب اللغة: (عجز).

(6) الزَّيْدِيُّ، تاج العروس: (عجز).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 295 / 17.

(8) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).

(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 350 / 27.

العذاب والرجز
الأليم جزاء
المجرمين

المُلازِمون للنَّارِ الشَّديدة التَّأجُّجِ والإحراق، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21] (1).
❖ الإيضاح اللُّغَوِيُّ والبَلَاغِيُّ:

بلاغة وضل هذه الآية بسابقتها تقديمًا وتأخيرًا:

يَحْسُنُ الوصلُ بين الجُمْلِ المترابطة لفظًا ومعنى؛ فكلتا الآيتين
تتحدَّثان عن عاقبة الفريقين، إذ أُريد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾
الفريقُ المُقابل للذين آمنوا؛ ومعناه: والذين استمروا على الكفر
وثبَّطوا النَّاسَ عن مُتَابعة النَّبِيِّ ﷺ ظَنًّا منهم أَنَّهُم يُعْجزوننا وأنَّهُم
لا يبعثون؛ فأولئك هم المُقيمون في النَّارِ المُصاحبون لها، وذلك حال
المُشركين المُتحدِّث عنهم (2)؛ فهو تفصيلٌ لحال فريق المُشركين بعد
تفصيل حال فريق المُؤمنين، حيث بَشَّرَ المُؤمنين أوَّلًا وأنذر الكافرين
ثانيًا، ومن عادة القرآن إذا ذكر فريق الإيمان أن يُعقبه بذكر فريق
الكُفران، والعكس صحيح، وإنَّما قدَّم ﷺ ذِكرَ الفريق الأول تنبيهًا
على تفضيل أهل الإيمان، وأنَّهم المُقدَّمون المنصورون؛ نظرًا إلى
قوله في السِّباق البعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ [الحج: 25] الآية، وقوله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
[الحج: 38] الآية، وقوله فيه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ [الحج: 39] الآية، وقوله
فيه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحج: 40] الآية، وتبشيرًا لنبيِّنا ﷺ
باستجابة أَكْثَرِ أهل الكفر من قومه لدعوته، ودُخُولِهِم في دين الله
أفواجًا، وقد كان.

إِثَارُ فعل (السَّعي) ماضِيًا، مَجْمُوعًا:

لَمَّا كان سياقُ الآية الكريمة في الإنذار؛ فقد قال الله تعالى مُعَبِّرًا

إِنَّ قَلِيلًا مِنْ
الصَّادِّ عَنْ سَبِيلِ
اللهِ يَسْتَوْجِبُ
الْجَحِيمِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 601، 602، وابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 4/ 128، وابن كثير، تفسير
القرآن العظيم: 5/ 441.

(2) الراغبي، تفسير الراغبي: 17/ 126، وابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْوير: 17/ 295.

بالماضي زيادةً في التَّخْوِيفِ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾؛ أَي: أَوْفَعُوا السَّعْيَ وَلَوْ
 مَرَّةً وَاحِدَةً بِشُبْهَةٍ مِنَ الشُّبْهِ⁽¹⁾، وَأَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَى وَائِ الْجَمَاعَةِ؛ دَالًّا
 عَلَى كَثَرَتِهِمْ وَتَكَاتُفِهِمْ فِي بَاطِلِهِمْ؛ لِبَيَانِ أَنَّ قُوَّتَهُمْ وَقَدْرَتَهُمْ مَهْمَا
 عَظُمَتْ سَوْفَ تَكُونُ هَبَاءً مَنْثُورًا حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَحِيمَ.

بلاغة الاستعارة التَّمثِيلِيَّةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ تَفَنُّنِهِمْ فِي التَّكَذِيبِ بِالسَّعْيِ:

يسعى المجادل
 في آيات الله في
 طريق نهايتها
 هلاكه

السَّعْيُ فِي الْأَصْلِ هُوَ الْمَشْيُ الشَّدِيدُ، وَيُطْلَقُ عَلَى شِدَّةِ الْحِرْصِ فِي
 الْعَمَلِ تَشْبِيهًا لِلْعَامِلِ الْحَرِيصِ بِالْمَاشِي الشَّدِيدِ الْمَشْيِ فِي كَوْنِهِ يَكْدُ
 لِلْوُصُولِ إِلَى غَايَةٍ، وَعَبَّرَ عَنْ اسْتِمْرَارِ الْكَافِرِ عَلَى الْكُفْرِ وَمَحَارَبَةِ
 الْآيَاتِ بِالسَّعْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾؛ وَالْكَلَامُ تَمَثُّلٌ شُبَّهَتْ هَيْئَةً
 تَفَنُّنُهُمْ فِي التَّكَذِيبِ بِالْقُرْآنِ، وَتَطَلُّبُهُمُ الْمَعَاذِيرَ لِنَقْضِ دَلَالَتِهِ حَيْثُ
 يَسْعَوْنَ فِي إِعْجَازِ آيَاتِ اللَّهِ وَغَلَبَتِهَا وَصَرَفَهَا عَنْ طَرِيقِهَا، حَيْثُ
 طَعَنُوا فِيهَا فَسَمَّوْهَا سَحَرًا وَشَعْرًا وَأَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ، وَثَبَّتُوا النَّاسَ
 عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا⁽²⁾، وَتَعَرَّضَهُمْ بِالْمَجَادَلَاتِ وَالْمُنَاقَضَاتِ لِلنَّبِيِّ ﷺ
 بِهَيْئَةِ السَّاعِي فِي طَرِيقٍ يُسَابِقُ غَيْرَهُ لِيَفُوزَ بِالْوُصُولِ⁽³⁾، ثُمَّ حُذِفَ
 الْمُشَبَّهُ وَأَبْقِيَ الْمُشَبَّهُ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّمثِيلِيَّةِ لِيَكُونَ تَجْسِيدًا
 لِحَالِ الْكَافِرِينَ وَتَشْخِصًا لَصُورَتِهِمْ الْعَقْلِيَّةَ بِهَيْئَةِ حَسِيَّةٍ.

وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَبْنِيٌّ عَلَى الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ، كَأَنَّ الْآيَاتِ
 طَرِيقٌ يَسِيرُونَ فِيهِ سَيْرًا حَثِيثًا لِيُعْجِزُوا اللَّهَ، فَشَبَّهَ الْآيَاتِ الْمُضَافَةَ
 لِلَّهِ تَعَالَى بِالطَّرِيقِ الَّذِي يَسْعَى فِيهِ الْإِنْسَانُ، وَحَذَفَ الْمُشَبَّهَ بِهِ وَذَكَرَ
 صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ وَهُوَ وَقُوعُ السَّعْيِ فِيهِ، وَهَذَا يُبَيِّنُ شِدَّةَ فَسَادِهِمْ
 وَإِفْسَادِهِمْ؛ فَهَمْ يَعْدُونَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ إِفْسَادًا لِلدِّينِ وَمُنَاقِضَةً
 لِسَبِيلِهِ الْمُبِينِ.

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 68 / 13.

(2) أَبُو حَتَّى، الْبَحْرُ الْحَمِيْطُ: 524 / 7، وَالْخَطِيبُ، التَّفْسِيرُ الْقُرْآنِيّ: 1059 / 9.

(3) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 295 / 17.

نكتة تعدية الفعل «سَعَوْا» بـ «فِي»:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي عَائِتِنَا﴾؛ أي: عملوا في حُججنا ردًّا وإبطالاً، فصدّوا عن اتّباع رُسولنا والإقرار بكتابنا الذي أنزلناه، وقال: ﴿فِي عَائِتِنَا﴾ تعديةً للسَّعي بـ «فِي» كما يُقال: سعى فلانٌ في أمر فلانٍ⁽¹⁾، ففي تعدية الفعل بحرف الجرّ «فِي» الذي يُفيد الظرفيّة إشارةً إلى أنّهم يدخلون في آيات الله، ويُلبّسون الحقّ بالباطل، إذ يُحرّفون الكلم عن مواضعه، ويُلقون فيه بالهذَر من القول، والسَّخف من الكلام، كما حكى القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: 26]⁽²⁾، فالظرفيّة مجازيّة أُريد بها التَّغلغل داخل الآيات للردّ والإبطال والتَّكذيب حرصًا منهم على شدّة المحاولة المناسبة للسَّعي معاجزين ومغالبين للفوز به.

سِرُّ التَّعبير بـ «عَائِتِنَا» جمعًا:

قوله تعالى ﴿فِي عَائِتِنَا﴾؛ أي: براهيننا وحُججنا التي نصبناها للدّلالة علينا مرثيّةً أو مسموعةً⁽³⁾؛ فالآيات إمّا كونية كالشمس والقمر، وإمّا معجزات، وإمّا آيات الأحكام، وسَعَوْا فيها يعني: قالوا فيها قولًا باطلًا غير حقٍّ، كما يسعى الواشي بالباطل بين النّاس، فهؤلاء إنّ نظروا في آيات الكون قالوا إنّها من صُنْع الطّبيعة، وإنّ شاهدوا مُعجزةً على يد نبيٍّ قالوا: سِحْرٌ وأساطيرُ الأولين، وإنّ سمعوا آياتِ الأحكام تُتلى قالوا: شعْرٌ، وهم بذلك كلّهُ يُريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانهم، ويصدّوا عن سبيل الله⁽⁴⁾.

سِرُّ إضافة الآيات إلى ضمير التَّعظيم:

في إضافة (الآيات) إلى ضمير العظمة والكبرياء دليلٌ على

بيان انغماسهم
في الكيد
وإغفالهم في
التَّلبيس

في كلّ آية حُجّة
عليهم

كيف يُعَدِّل عن
العظيم؟!

(1) ابن جرير، جامع البيان: 130 / 17.

(2) الخطيب، التفسير القرآني: 1059 / 9.

(3) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 68 / 13.

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9871 / 16.

عظمة شأن هذه الآيات؛ لأنها صادرة عن العظيم ﷺ وتقدّست
أسماءه، وفي هذه الإضافة من التّعظيم والتّشريف ما فيها مما
يدعو الإنسان إلى الإيمان بها وتصديقها، وفي هذه الإضافة كلُّ ذمٍّ
للذين سعوا بالردّ والإبطال؛ كيف تجاهلوا تلك العظمة الإلهية في
تلك الآيات على تعدّدها وكثرتها وتنوّعها؟! وكأنّ الإضافة أفادت
تعليل ذلك السّعْي الشّدِيد بأنّها منسوبة إلى الله تعالى، ولو كانت
تلك الآيات منسوبة لغيره ما حاربوها ولا ناصبوها العداء.

دلالة التّعبير بصيغة المفاعلة ﴿مُعْجِزِينَ﴾:

إنّما ألجأهم إلى
التّكلف وبذل
الجهد في الفعل
عظمة الآيات

لفظ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ جمع اسم الفاعل (معاجز)؛ وهي من
(عاجَزَ) وليس من (عجز) عن كذا؛ يعني: لم يقدر عليه، يُقال:
عاجَزَ فلانٌ فلاناً يعني: باراه أيّهما يَعْجِزُ قبل الآخر، فعاجِزُهُ مثل
باراهُ وغالبُهُ لِيُثْبِتَ أنّه الأفضل، إذن: فالمعاجزة مفاعلةٌ ومشاركةٌ
دالةٌ على التّكلف وبذل الجهد المُضني في المُشاقّة والمُخاصمة⁽¹⁾،
وهذه الصّيغة مُؤَسَّسة على دلالة إضافة الآيات إلى صيغة العَظَمَة
في قوله: ﴿ءَايَاتِنَا﴾؛ فَمَنْ يسعى في تلك الآيات العظيمة بالباطل ردّاً
ونقضاً لا بدّ أن يكون مُعاجِزاً بهذه الصّيغة، باذلاً جهداً قوياً ليتمكّن
واهماً من الردّ والإبطال.

بلادة الاستعارة في التّعبير عن المُشاقّة بالمُعاجزة:

بيان تكرار
الحالة
والمجادلة من
الكفار

المُعاجزة مُستعارةٌ للمُشاقّة مع المؤمنين ومعارضتهم من
قبيل الاستعارة التّصريحية التّبعية، وتصورُ محاولة أهل الكفر
واجتهادهم في مجادلة أهل الإيمان بكلِّ إصرارٍ وقوة للفوز عليهم
في المُحاجّة والخصومة، وكأنّهم في حلبةٍ سباقٍ يتسابقون في الردّ
والإنكار على المؤمنين والآيات، فكلّما طلب المؤمنون إظهار الحقّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 9871 / 16.

طلب هؤلاء إبطاله كما يُقال: (جاراه في كذا) ⁽¹⁾، والمرمى من هذا المجاز أن هؤلاء المشركين يبذلون الجهد الشديد، ويتبارون فيما بينهم متنافسين للخوض في آيات الله تعالى؛ لكي يفوزوا بأكبر ردٍّ أو نقضٍ لها وهما منهم.

توجيه القراءتين في قوله: ﴿مُعْجِزِينَ﴾:

قرأ الجمهور ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بألف بعد العين، بينما قرأها ابن كثير وأبو عمرو البصري ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بفتح العين وتضعيف الجيم ⁽²⁾، وعلى قراءة الجمهور يكون معنى ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مُسَابِقِينَ مُسَاقِينَ لِلْسَّاعِينَ فيها بالقبول والتَّحْقِيق، مِنْ: (عَاجِزُهُ فَأَعْجَزَهُ): إذا سبقه فسبقه؛ لأنَّ كلاً من المتسابقين يطلب إعجاز الآخر عن اللُّحُوق به ⁽³⁾؛ فالمعنى: مُعَانِدِينَ، وقيل: معناه: ظانِّين أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ الرَّسُولَ وَأَتْبَاعَهُ، وقيل معناه: يحسبون أَنَّهُمْ يفوتوننا لإنكارهم البعث والثَّوَاب والعقاب، فلا نقدر على إعادتهم ومُعَاقِبَتِهِمْ ⁽⁴⁾.

وعلى قراءة ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بتشديد الجيم يكون المعنى: مُبْطِئِينَ مُثَبِّطِينَ؛ أي: يُثَبِّطُونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وقيل معناه: ينسبون المؤمنين إلى العَجْز ⁽⁵⁾؛ فهما قراءتان مشهورتان مُتقاربتا المعنى؛ وذلك أنَّ من عَجَزَ المؤمنین عن آيات الله، فقد عاجزهم وغالبهم وفاز عليهم، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أَنَّهُمْ كانوا يُبْطِئُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَيُغَالِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يحسبون أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَهُ وَيَغْلِبُونَهُ، وقد ضَمِنَ اللَّهُ لَهُ نصره عليهم، فكان ذلك مُعَاجِزَتَهُمُ اللَّهُ ⁽⁶⁾.

جَمَعَ أَهْلُ الْكُفْرِ
بَيْنَ ضَلَالِهِمْ
فِي أَنْفُسِهِمْ
وَإِضْلَالِهِمْ
غَيْرِهِمْ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 253.

(2) ابن الجزي، النشر: 2/ 327.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 75.

(4) ابن خالويه، الحجة، ص: 254، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 185، والفراسي، الحجة: 5/ 284.

(5) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 481.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 602.

ومن بلاغة القراءتين تعاضدهما وتكاملهما في تصوير مشهد أهل الكفر وهم يصدّون عن سبيل الله؛ فقراءة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ تُقرّر حالهم وهم يُعاجزون في آيات الله العظيم.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾:

الصادون عن
سبيل الله هم
خطر هذا الكون

الإشارة إلى السّاعين في الآيات معاجزين باسم الإشارة المفيد للبُعد ﴿أُولَئِكَ﴾ يُؤدّن بأنّ المُشار إليهم هم المُتصّفون بما سبق ذكره من الصّفات، وهي الكُفْر بالله والتّكذيب بآياته، والسّعي في محاربة الله وأوليائه وهم الحقيقون بهذا البُعد من رحمة الله، وهم الأحرى بهذا الجزاء الذي كتبه الله الدّيان الحسيب لهم.

والتّصدير باسم الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ للتّنبية على أنّ هؤلاء البُعداء المُخبر عنهم، جديرون بما سيُردّ بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما ذُكر قبله من الأوصاف؛ أي: (هم أصحاب الجحيم؛ لأنّهم سعوا في آياتنا مُعاجزين)⁽¹⁾؛ ففي تمييزهم باسم الإشارة: ﴿أُولَئِكَ﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ لما قبله من السّعي المذكور؛ لما كان سبباً قوياً في استحقاقهم الجحيم.

سرّ التعبير بالصّحبة:

الإصرار على
الكفر مصاحبةً
للجحيم

عُبر بالصّحبة في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ للتّنبية على معنى المُلازمة للجحيم؛ والمعنى: أنّ أولئك أهل النّار الموقّدة المُتأجّجة المُلازمون لها، المصاحبون لها في كلّ أوقاتهم، المُستحقّون دخولها، الماكثون فيها أبداً لا يُحوّلون عنها، فلا يُخفّف عنهم من عذابها ولا يفتّر عنهم لحظةً من أليم عقابها⁽²⁾، فلا يزالون في ذلك بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرّسول وسعيهم، فلمّا كانت الصّحبة تقتضي المُلازمة، صرّح بها، وإنّما لزموا الجحيم؛

(1) البقاعي، نَظْم الدرر: 13/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 296.

(2) السّعدّي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 638، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 9/ 325.

للزومهم الكفر والضلال والإضلال؛ بسبب سعيهم في آيات الله
مُعاجزين وصادّين عنها.

نكتة التعبير بلفظة ﴿أَصْحَبُ﴾ اسماً لا فعلاً:

استعمل لفظ ﴿أَصْحَبُ﴾ المجموع من الوصف (صاحب) مُراداً به الاسم الجامد، لدلالته على الذات الثابتة؛ لذلك جاءت مُشتقاتها في القرآن الكريم اسميةً أكثر من مجيئها فعليةً؛ لأنّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل فإنّه يستمر ويستقر ويدوم، والصَّاحِبُ مَنْ لَزِمَ أَبَداً⁽¹⁾، فالاسمية أليقُ بهذا اللفظ؛ لذلك جاء هذا المعنى في أغلب مواطن وُروده في آيات القرآن بهيئة الاسمية، ومنه هذه الآية، دلالة على ثبات حال الموصوفين بها، وفي ذلك من الترهيب لمن أصرَّ على كفره وغيه ما لا يخفى؛ فإنّ الصُّحبة في هذا السياق لها دالتان: دلالة المال، ودلالة الحال؛ فإنَّ إطلاق الصُّحبة للجحيم على الكافرين المُصرِّين يُصوِّرهم على أقبح صورة في الدُّنيا، ممَّا يجعل الآخرين ينفرون منهم ويُخبرُ بمآلهم في الآخرة؛ فيكون المعنى أنّهم مُلَازِمون للجحيم على سبيل الثبوت والاستقرار وعدم التغيُّر.

بلاغة المجاز في وصفهم بأنَّهم أصحاب الجحيم:

قوله تعالى: ﴿أَصْحَبُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: مُلَازِموها ومُلابسوها بحيث لا يُفارقونها حسب ملازمتهم في الدُّنيا لما يَسْتَوْجِبُها من الأسباب، فعَبَّرَ النُّظم الكريم عن هذه المُلازمة بـ(الصُّحبة) بطريق الاستعارة التَّصريحية الأصلية، ومعنى الصُّحبة في الأصل: الاقترانُ بالشيء، والغالب في العُرف أنَّ تُلَقَّقَ على المُلازمة؛ ففي الصُّحبة معنى الوصل، فسَمَّوا أصحابها لاتصالهم بها وبقائهم فيها، فكأنَّهم ملكوها فصاروا أصحابها؛ والمُراد أنّهم يدومون فيها؛

الدَّلالة على
الاستقرار
والمُلازمة الثابتة
الدَّائمة

بيان شدَّة
المُلازمة لها
وعدم مُفارقتهم
إياها

(1) الرَّاغِب، المُفردات: (صحب).

فقد شبَّههم من حيث الدوام بالصَّاحِب⁽¹⁾ وفيها من الإشارة أيضًا
أنَّه لا أهليَّة لهم للجنَّة، وفيه أنَّهم أَلِفُوا الكُفْر والضَّلَال في الدُّنْيَا؛
بدليل السَّعي المذكور؛ فاستحقوا صحبة الجحيم في الآخرة.

إيثار لفظ ﴿الْجَحِيم﴾ دون (النار) وغيرها:

آثر النِّظْم الكريم التَّعبير عن (النَّار) باسم من أسمائها يدلُّ
على شدَّة تَوَهُّجها وحرَّها، زيادةً في التَّرهيب منها وتحذيرًا من
السُّبُل الموصلة إليها، ومبالغةً في تهديد أصحابها؛ فهي النَّار الحارَّة
الموجعة الشَّدِيدُ عذابها ونكالتها⁽²⁾.

❖ الفرق المُعْجَمِيَّة:

الصَّاحِب والصَّدِيق:

(الصَّاحِب) من الصُّحْبَة في الزَّمان والمكان، وقد تكون صحبته
مؤقتةً في الطَّرِيق؛ مثل العبد الصَّالح مع موسى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ
عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ [التَّكْوِيف: 76]، أو في المكان؛ مثل يوسف مع
صاحبيه في السِّجْن: ﴿يَصْطَلِحِي السِّجْنَ عَازِبَاتٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ
الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: 39]، وقد تكون الصُّحْبَة مؤبَّدةً مثل الوالدين؛
قال تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [نُفُوس: 15]، ومثل الزَّوْجَة التي
تصحَّبُ الزَّوْجَ طيلةَ عمره غالبًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ
﴿٣١﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٢﴾ وَصَلَاتِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٣﴾﴾ [نَبَس: 34 - 36]، أمَّا الصَّدِيقُ
فمن الصَّدَاقَة، وهي اتِّفَاقُ الضَّمَائِرِ وصدقُ الاعتقاد على المودَّة⁽³⁾،
وفي التَّنْزِيلِ جوازُ الأكل من بيت الصَّدِيق واعتباره ضمنَ الأقارب،
قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحِجَهُ أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾ [النَّوْز: 61]، وقال تعالى
يصفُ حالَ المشركين وهم في النَّارِ يَصْطَرِّخُونَ ويتحسَّرون على فقد

في الصُّحْبَة
ملازمةً، وفي
الصَّدَاقَة صدقٌ
ومودَّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23 / 235.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 387 / 5.

(3) الرَّاغِب، المفردات: (صدق)، والعسكري، الفرق اللُّغَوِيَّة، ص: 285.

الأصدقاء: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَلْفَيْنِ ۖ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاءُ: 100 - 101]، فمصطلحُ (الصَّاحِبِ) أعمُّ من (الصَّدِيقِ)، والصَّدَاقَةُ من درجات الصُّحبة العالية؛ لأنَّ في الصُّحبة ملازمةً، وفي الصَّدَاقَةِ صدقًا ومودَّةً.

السَّعِيرُ والحَرِيقُ والجَحِيمُ وجَهَنَّمُ:

(السَّعِيرُ) هُوَ النَّارُ الملتَهبة الحَرَّاقَة، وتُسَمَّى حَرِيقًا في حال إحراقها؛ وهُوَ النَّارُ الملتَهبة يُقال: في العود نَارٌ، وفي الحجر نَارٌ؛ ولا يُقال: فيه سعيرٌ، و(الحَرِيقُ): النَّارُ الملتَهبة في شيءٍ وإهلاكها له؛ ولِهَذَا يُقال: وقع الحَرِيقُ في مَوْضِع كَذَا، ولا يُقال: وقع السَّعِيرُ؛ فلا يَقْتَضِي قَوْلُكَ السَّعِيرُ ما يَقْتَضِيهِ الحَرِيقُ، ولِهَذَا يُقال فلانٌ مُسَعَّرٌ حَرْبٌ كَأَنَّهُ يُشْعَلُها ويلهبها ولا يُقال: مُحَرَّقٌ⁽¹⁾.

والجَحِيمُ: اسمٌ من أسماء النَّارِ، وأصلُ الجَحِيمِ: الحرارةُ وشِدَّتُها، وَجَحَمَتِ النَّارُ: أَضْرَمَتْها وَزِدَتْ في توقُّدِها، والجَاحِمُ: المكانُ الشَّدِيدُ الحَرِّ⁽²⁾، والجَحِيمُ: شِدَّةُ توقُّدِ النَّارِ وإِضرَامُها⁽³⁾، ويُقال لِكُلِّ نارٍ عَظِيمَةٍ في مَهوَاةٍ جَحِيمًا⁽⁴⁾، والجَحِيمُ نارٌ على نارٍ وَجَمَرٍ، وَجَاحِمُهُ شِدَّةُ تَلْهُبِهِ، وَجَاحِمُ الحَرْبِ أَشَدُّ مَوْضِعٍ فيها، ويُقال لعَيْنِ الأَسَدِ جَحْمَةٌ لَشِدَّةِ توقُّدِها، وَأَمَّا (جَهَنَّمُ) فَيُفِيدُ بَعْدَ القَعْرِ مِنْ قَوْلِكَ: بئْرُ جَهَنَّمَ إِذَا كَانَتْ بَعِيدَةً القَعْرِ⁽⁵⁾.

السَّعِيرُ إلهابُ
النَّارِ، والحَرِيقُ
توقُّدُها،
والجَحِيمُ
شِدَّةُ الإحراقِ،
وجَهَنَّمُ بُعْدُ
قعرِها

(1) العسكِرِيُّ، الفروق اللُّغَوِيَّة، ص: 311.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جحم).

(3) السَّمِين، عمدة الخُفَاط: (جحم).

(4) محمَّد جبل، للعجم الاشتقاقِيُّ اللُّؤْصَل: (جحم).

(5) العسكِرِيُّ، الفروق اللُّغَوِيَّة، ص: 311.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 35، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-77-8

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 35: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-77-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»